معطيات الفن الإسلامي في المغرب *

عبد العزيز ابن عبد الله

سوف لا أتحدث في هذا العرض الوجيز عن الآثار المغربية «العادية» antiques إلا من زاوية واحدة كمدخل الى الفن الاسلامي في المغرب العربي ، فقد بنى الفينيقيون في عام واحد (حوالي سنة 1101 ق م) مدينتين في كل من تونس والمغرب الاقصى يعتبران أقدم حاضرتين في هذا الجزء من العالم وهما أوتيك Utique قرب تونس وليكسوس(1) Lixus قرب العرائش ثم في عام 814 ق م مدينة Carthage أي قرية حداش

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

(*) خلاصة محاضرة ألقاها الكاتب في المؤتمر السابع للآثار الذي انعقد بمدينة العين بدولة الامارات العربية المتحدة في 16 و 17 دجنبر 1974 .

(1) ليكسوس : تقع على مسافة أربعة كلمترات شمالي العرائش على الضفة اليمنى لنهر اللكوس وهي فينيقية الاصل احتلها الرومان وأقاموا بالقرب منها ضريح هرقل وهي معروفة عند المؤرخين بمدينة الشمس أو تشميس التي يقال بأن حدائق هسبيريدس ذات الفواكه الذهبية موجودة بها على خلاف ما يراه آخرون من وجودها في الجزر الخالدات وهي الجزر « السعيدة » السبع التي احتلها الاسبان في القرن الخامس عشر ، ويرى علماء الآثار أن هذه المدينة تحتوي على كنوز فنية لا تقدر لذلك أولى المسؤولون من الأثريين هذه الحاضرة الازلية عناية خاصة . وقد عثر على البناء الفينيقي في الطبقة السفلى على عمق بضعة امتار وفوقه البناء الروماني على طبقتين أعلاها المدينة الامبراطورية ثم طبقة أخيرة يظهر أنها راجعة لصدر الاسلام نظرا للعثور فيها على قطع خزفية عربية ملونة ومنقوشة بحروف كوفية علاوة على بقايا مسجد بمحرابه وفنائه ، اما النماذج الاثرية القديمة فهي أوان من الفخار تطور صنعها فدهنت أيام الفينيقيين باللون الاحمر وكذلك قناديل منوعة ، كما عثر على بقايا دور بونيقية مبنية من الحجارة تحتوي على غرف مستطيلة كالغرف المغربية الحالية وأرضها مبلطة بالفسيفساء المرمري ، وهذه المدينة التي تنقسم الى عدة أحياء كل حي بسوره الخاص تعتبر (هي ومدينة شالة) المدينتين الوحيدتين الواقعتين في مركز بحري هام وكانت مستودعاتها الفنية تستعمل لحفظ الحبوب والزيوت .

او القرية الحديثة بالبونية ، ومعنى ذلك ان انطلاق الفن المعماري المغربي القديم نفسه كان من الشرق ، ويتبلور ذلك فى الحجارة التي عثر عليها اخيرا فى البرازيل وهي مكتوبة بالبونية وتحمل تاريخ 125 ق م . ويتبين من مقارنتها باللغة العربية أنها هي نفس اللهجة العامية التي لا تزال تستعمل بتونس وباقي المغرب العربي الى الآن ، ومعنى ذلك أن الفكر الشرقي العربي بمعالمه اللسنية والاثرية والفنية قد دخل الى المغرب العربي قبل الاسلام بنحو اربعة عشر قرنا .

وقد قامت أول مملكة عربية صميمة فى مدينة ((نكور)) الواقعة بالريف على شاطىء البحر الابيض المتوسط وذلك فى عصر الوليد الاموي وغزا الاسلام منذ العقود الاولى للفتح قلوب صنهاجة وغمارة فاتجهت الجهود الى بناء رباط يحتوي على مسجد بمرافقه يستوحي تصميمه الهندسي من جامع الاسكندرية ، وكان الاسلوب المعماري بسيطا تبعا للفن الشرقي الاسلامي الذي كان لا يزال اذ ذاك فى فجر انبثاقه ، فجامع عمرو ابن العاص (عامل مصر) مثلا خال من كل زخرفة وتنميق كالقربصة والتنقيش الخشبي والمرمري وسائر العناصر المعمارية الدقيقة التي امتاز بها الفن العربي فى العصور التالية .

ومن هذا الطراز مسجد اغمات غيلانة الذي أسس عام 85 هـ حسب ما يذكره ابن عذارى فى كتابه (المغرب) والذي يظهر أنه أول مسجد بناه المسلمون بالمغرب بعد ان حولت المعابد التي بناها المشركون الى مساجد وجعلت المنابر فى مساجد الجماعات وبدأت افريقيا تتطور روحيا وفنيا على نسق الشرق الاسلامي .

وقد أمسى المغرب منذ القرن السابع الميلادي عبارة عن مرحلة فى الطريق الكبرى التي تصل الهند بجبل ((البرانس)) باسبانيا والتي يطرقها علاوة على رسل الخلفاء وسفرائهم ثلة من الحجاج والطلبة والفنانين والتجار فلا يسعنا والحالة هذه أن نستهين بآثار عهد الاسلام المستديمة والمنبعثة بواسطة هذه المسالك ، ومن أبرز مظاهر هذا الاشعاع الفني انبثاق

مساجد وجوامع تتسم بطابع عربي أصيل وتوجد خاصة بافريقية العناصر الاولية للفن الاسلامي ، فمدينة القيروان هي أول حاضرة أسسها العرب بعد فتح عقبة بن نامع الفهري ، وقد برزت فى القرن الثاني الهجري أهمية هذه المدينة التي اصبحت عاصمة المغرب الاسلامي فى عهد عبيد الله بن الحبحاب باني الجامع ودار الصناعة بتونس عام 116 هـ والذي استعمل على طنجة العامل عمر بن عبد الله المرادي وتم ذلك فى أواخر عهد الامويين وأوائل العصر العباسي حيث بدأ الاسلام يتغلغل فى الفيافي الافريقية . وقد احتفظ المغرب مع ذلك بسمة خاصة نظرا لكون العباسيين لم يملكوا ما وراء الـــزاب .

وفى نفس الوقت تاسست دولة الاغالبة وبني رستـــم فى كـــل من افريقية والمغرب الاوسط وتركز الادارسة بالمغرب الاقصى .

ويمكن ان نعتبر مدينة فاس أول مركز عربي تفتق فى البلاد المغربية واصبح بعد ذلك ـ حسب كوتيي ـ مظهر اعجاز فى ميدان التكيف بالطابع الشرقي . ذلك ان الفن اتخذ مناهج جديدة منذ العصر الاموي فى كل من الشرق الادنى والمغرب العربي بفضل مرونة وحساسية العرب ومداركهم الابداعية ، فهناك عوامل حدت العرب فى الاندلس والمغرب وكذلك بمصر الى الاستيحاء فى زخارفهم من معطيات الهندسة ، وهذه العوامل هـــي اهمالهم للاشكال والصور المستمدة من الطبيعة وتعمقهـــم فى دراســـة الرياضيات وسعة مواهبهم واذواقهم .

وقد تبلور هذا الاتجاه مع مرور الاعصار وتهذبـت اطرافـه ورقـت حواشيه وتنمقت معالمه .

فظهور العباسيين بالشرق قد حدا فلول الامويين الى تاسيس مملكة اتخذوا لها قرطبة حاضرة ما لبثت ان اصبحت مهدا لمدنية جديدة ترعرعت مجاليها الخصبة طوال قرنين ونصف قرن مسفرة عن فترة زاهـــرة فى تاريخ الفن الاسلامي .

ورغم احتكاك القبائل العربية المستقرة بالاندلس واستفحال حركة التمرد بانضمام البرابرة وتدخل المسيحيين لم يتوقف ازدهار الفنون ، وقد نتج عن حركة الربضيين الثورية التي شبت فى ربض قرطبة بعد تاسيس فاس ـ هجره عائلات اندلسية من مختلف الطبقات الى خارج الاندلس وقد استفادت حاضرة المغرب الادريسية من الافواج القرطبية التي توافدت للاستيطان بها فكان لهؤلاء أثرهم فى توجيه الحركة الفكرية والمآثر الفنية الا أن الاستقرار السياسي الذي استتب فى عهد الناصر والحكم الثاني قد فتح المجال فى وجه الادباء والشعراء والفنانين فأقيمت دعائم نهضة فنية جديدة تجلت معالمها الرائعة فى البنايات التي تنافست العناصر المختلفة من سكان الاندلس فى وضع أسسها مما أدى الى تأصيل نواة وصفت فيما بعد بالفن الاندلسي المغربي .

فهذه المعطيات الاولية للفن الاندلسي التي تجمعت فى روائع قرطبة كالجامع الكبير والقصر ومدينتي الزهراء والزاهرة قد انضافت اليها عناصر فنية مقتبسة من مدارس طليطلة واشبيلية وغرناطة حيث توجد مثلا فى قصر الحمراء قوالب بسيطة من الجبس ما زالت تغالب الحدثان الى الان.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وفى هذا المزيج الفني برز العنصر الشرقي فى الآثار الشامية والفارسية والبيزنطية ، فكما سبق للوليد الاموي أن استعان بامبراطور الاستانة لاستقدام فنانين فى الفسيفساء من أجل ترخيم جوامع دمشق والمدينة والقدس فكذلك اتجه الحكم نحو الامبراطور الروماني للحصول على خبراء فى هذا الجانب من الفن البيزنطي ، وقد اكتسب العمال الاندلسيون مهارة فى الابتكار تجاوزوا بها معلميهم .

وقد كان لروح التبادل التي سادت بين الشرق والغرب بعد قيام الدولة الاموية فى الاندلس أثرها العميق فى طبع أبسط المعالم فى الحضارة المغربية الاندلسية ، اذ لا يعزب عن الاذهان ان زرياب وهو من أبرع مغني الشرق قد هاجر الى قرطبة فاصبح ـ كما يلاحظ دوزي ـ مشرع اسبانيا العربية حيث حقق ثورة جذرية فى الازياء ، وكل هذا أضفى على الحضارة الاندلسية طابعا خاصا من الروعة والرواء وازدهرت فى عهد عبد الرحمن

الناصر جميع مرافق المدنية من فلاحة وصناعة وتجارة وفنون وعلوم مما ساعد حضارة اسبانيا المسلمة على احتلال المكانة الاولى بالنسبة لدول الغرب ويشهد كثير من مؤرخي الفكر بأوربا أن القرن العاشر الميلادي وهو عصر النهضة الناصرية ـ يعتبر من أبهى وأزهى عصور اسبانيا العربية سواء فى الفنون أو المؤسسات العلمية والناصر الاموي هذا هو الذي وسع جامع القرويين بعد بنائه بقرن مضفيا بصورة رسمية على مدينة فاس أول طابع فني أندلسي وقد ازدهرت هذه الحضارة الى أن أصبحت بعد ذلك بقليل منافسة لدار السلام بغداد الرشيدية .

وقد كان لفاس أثرها القوي حتى فى افريقيا وبذلك أمسى مهد علماء الاسلام بافريقيا تابعا لمدرسة الغرب الاسلامي فاس الادريسية ويرجع فضل هذه النهضة الى المولى ادريس الثاني الذي أمد حاضرة العلم بأولى مؤسساتها ، فالفن بالمغرب وفى غيره من الدول الاسلامية هو من متبنيات الامراء والملوك الذين يعنون بالآداب والفنون الجميلة ويشجعون الكتاب والفنانين متحملين بذلك تكاليف مادية باهضة ، ففي الاندلس بلغت مصاريف بناء القصور وزخرفتها فى عهد الملوك الامويين الاول ثلث الميزانية العامة للدولة وكان المهندسون المعماريون والنحاتون والرسامون يشتغلون ترضية لحاجيات الامير ونوازعه السياسية ونقعا لغلته الدينية وتلبية لاتجاهاته الزخرفية ، وعندما كانت الاضطرابات تستتب وتحتدم كان الفن يتوقف وينتكس لان ازدهاره منوط بثروة الدولة وشخصية الامير.

كل ذلك جعل تطور الفنون معلقا على الظروف والملابسات التاريخية ومدى ثراء البلاد فى الحقل المادي ، وقد استمرت هذه التقاليد الفنية بالمغرب خلال العصور التالية وحتى عقب انحلال المملكة الادريسية فى القرن الثالث الهجري ، ظل كبار الامراء يؤسسون من الشمال الى الجنوب حواضر صغرى تنافس حاضرة فاس فى اقتباس مظاهر الحضارة الاسلامية ونشر معالمها الرائعة .

ويظهر ان الحياة الحضرية كان لا باس بازدهارها آنذاك نظرا لوفرة الحواضر التي اندرس معظمها ، وقد ترك لنا كل من البكري والادريسي

أسماء مجموعة من المدن اندثرت الآن معالمها وهي مجهولة فى الخرائط ، وقد هدم البرغواطي يونس بن الياس وحده 387 مدينة حسب زعم بعض المؤرخين ، وتهمنا هذه الحواضر وتلك المؤسسات من عدة وجوه لان الفن فى كل قطر مظهر لامجاده وصورة حية لروائعه ، فما أثر من الآثار العمرانية الا ويمكن أن تنطوي زخارفه ونقوشه على اسرار من شأنها أن تلقي يوما ما ضوءا جديدا على المجالات التي ظلت غامضة فى تاريخ البلاد، فالدراسات الاثرية تكون أحيانا أضمن وسيلة للتحري والتصحيح وهي عنصر جوهري فى كل حضارة .

المرابطون والفن

ان احتكاك العناصر السلالية فى الاندلس قد احتد وعجل ذلك بسقوط الخلافة الاموية مما أدى الى قيام نحو العشرين من ملوك الطوائف أبرزهم المعتمد بن عباد أمير اشبيلية الذي اتسم بلاطه بروعة خلابة وكان مجمعا للعلماء والادباء ورجال الفن غير أن الزحف الاسباني استفحل فاستنجد مسلمو الاندلس بزعيم الدولة المرابطية يوسف بن تاشفين الذي عمل على توحيد الاندلس تحت راية الاسلام ومنذ ذلك العصر أصبحت الاندلس مقاطعة مرابطية عرف فيها الفن خلال جيلين مظهرا جديدا من الروعة والازدهار .

وقد لوحظ أن المرابطين الذين ورثوا ملك الامويين وحكموا العدوتين كانوا صلة وصل بين اسبانيا والبربر حيث نما التبادل بين شقي مملكتهم ، واذا كانت اسبانيا اذ ذاك قد خضعت سياسيا للمغرب فان المغرب كان اقليما فنيا أندلسيا حيث استقدم يوسف صناعا قرطبيين لبناء مؤسسات بفاس بينما استفاد ابنه علي من مواهب مهندسي العدوة لاقامة قنطرة تانسيفت مثلا فى مدخل حاضرة مراكش ، وبفضل هؤلاء الغزاة الصحراويين فرض الفن الاندلسي روائعه على المغرب .

وقد وسع المرابطون جنبات ((جامع القرويين)) المؤسس عام 245هـ على الشكل الذي ما زال عليه الى الان كما يتجلى ذلك من الوصف الوارد

فى القرطاس وزهرة الآس ، وقد بني جامع القرويين طبقا لتصميم أصيل فصحونه موازية للقبلة على غرار مسجد الشرفاء الذي بناه المولى ادريس بفاس وكذلك جامع ابن طولون بالقاهرة وجامعي بعلبك بدمشق .

وينبغي أن نؤكد هنا أن علي بن تاشفين فاق والده كثيرا ، فيكفي ان نذكر ان معظم أروقة جامع القرويين زاخرة بروائع الفن الاندلسي المقتبس طبق الاصل من الفن الاندلسي بما كان ينطوي عليه فى القرن الخامس الهجري من رقة ورشاقة وروعة وزخرف ، فاسهام المرابطين فى الفن كان مهما لا يخلو من تجديد ، فالفنان لا يمكن أن يستسيغ ويقتبس الا ما تمكن تقريبا من الكشف عنه ولنا على ذلك دليل قوي فى النفوذ الشامخ الذي بسطه المرابطون فى الاندلس وافريقيا وذلك فى العمل البناء الذي حققوه فى هذا الجزء من المغرب الاسلامي ، وقد لوحظ عن حق أن اقامة المرابطين لصروح أكبر امبراطورية أسست فى العالم حيث امتدت من الاندلس الى جزر البليار الى نهر النيل (النيجر) لتنم لدى الفاتح عن تفتح مدارك قوية .

وعلى ذكر المرابطين والفن أرى من اللازم الاشارة الى موقف أحد علماء الآثار الاجانب من أحد مآثر المرابطين فهؤلاء العلماء ـ وأغلبهم مستشرقون ـ بقدر ما نقدر دراساتهم وأبحاثهم بقدر ما يتحتم علينا اعادة النظر فيما وصلوا اليه من نتائج للتأكد من صحتها ، ففى خصوص جامعة القرويين التي هي أقدم جامعة فى العالم بعد جامعة الزيتونة وقبل جامعة الازهر ، زعم ((مارسي)) فى كتابه الذي صدر عام 1927 م حول الفن المعماري ان ما توهمه ابن ابي زرع صاحب ((القرطاس)) من وجود ترخيمات مرابطية رائعة فى احدى قباب جامع القرويين انما يستهدف تغطية ((الفراغ)) الفني عند المرابطين وقد فند هذا الزعم عمليا نتاج الحفريات التي قام بها المغرب عام 1952 حيث برزت هذه الترخيمات والتجصيصات أروع وأجمل مما وصفه صاحب القرطاس ، ولكن هذا لم يمنع ((مارسي من الاحتفاظ برأيه فيما بعد ذلك بسنتين عام 1954 فى كتابه حول الفن الاسلامي ، وهو مظهر اما للجهل أو التجاهل أو الغفلة المدانة فى جانب علمي لا يغتفر فيه أي نزوع مهما يكن ولو عن حسن نية .

تطـــور الفـــن فى عهـــد الموحديـــن

وبعد انهيار الدولة المرابطية اعتلى أريكة العرش زعيم المصامـــدة الموحدين المهدي بن تومرت المنحدر من الاطلس الكبير ثم خلفه عبـــد المومن بن علي الكومي الذي وصفه بعض المؤرخين الاجانب بانه أعظـــم شخصية بدون منازع طوال القرون الوسطى البربرية اذ هو قائد حربـــي نظامي حقق للمرة الاولى فى تاريخ افريقيا الشمالية أعجوبة باستلام الحكم فى مجموع الاقطار الممتدة من المحيط الاطلسي الى طرابلس الغرب .

وهكذا فان الموحدين الذين ركزوا للمرة الاولى وحـــدة الاســـلام السياسية من حدود قشتالة الى ليبيا قد ساهموا فى تأصيل نـــوع من التوحيد بين عناصر الفن الاسلامي فى المغرب .

وقد استمر نفوذ الموحدين أزيد من نصف قرن ، كان لهم فى غضونه أعمق الاثر فى عدوة الاندلس المترامية الاطراف . فانتصار يعقوب المنصور فى الاندلس قد أضفى على الفن طابعا خاصا وحقق ـ بتساوق مع مدرسة القيروان ـ التجانس الفني بين الشرق والغرب ، ذلك أن المغرب تمكن عن طريق الاندلس من الاتصال بعالم جديد متأثر بالعناصر المصرية والعراقية ، وقد احتل الموحدون فى تاريخ الفن الاسلامي مكانة مرموقة تفوق ما كان للمرابطين فى هذا الحقل ، وذلك بالرغم من معارضة المهدي بن تومـــرت مؤسس الدولة الموحدية لبعض مظاهر هذا الفن كالموسيقى والسمـــاع والزخارف والنقوش ، غير أن البلاط الموحدي ما لبث ان تلألأت فى ربوعه مجالي الفن أيام عبد المومن الذي أضفى رواء على مساجلات الشعراء كما أقام العمارات الرائعة وازداد الفن روعة فى عهد ولده يوسف الذي زخـــر بلاطه بالاطباء والفلاسفة أمثال ابن رشد وابن طفيل وبني زهر .

وكان ابن يوسف هذا يقطن فى اشبيلية التي زخر فنها المعماري بابهى واروع مما زين به حاضرة مراكش ، اما ولده يعقوب المنصور فان بدائعه الفنية تشهد بانه أروع بناء فى العصر الموحدي حيث تبدو الهندسة المعمارية الموحدية فى اجلى واجل معالمها فى مساجد مراكش وحسان (بالرباط) ومرصد الخالدة Geralda باشبيلية ، وقد أكد كل من « طيراس »

و « باسي » ان الكتبية بمراكش أجمل معبد اقامتهالخلافة الاسلامية في المغرب وأنه يعادل فى جدة اسلوبه روائع الجامع الكبير بقرطبة والانطباعة التي ترتسم فى نفس الزائر لهذا المسجد هي الروعة والتاثير البليغ ، ذلك أن مساجد الموحدين أكمل وأروع المساجد الاسلامية فهي عبارة عن خميلة من الاساطين تتجلى فى غضونها جلالة الصحون والاروقة الممتدة بين الاعمدة والحنايا وصفاء الاقواس فى رسومها المتناهية والجناس الاخاذ بين الصحن المركزي والصحون الجانبية باقواسها المقربصة وقبتها البديعة وسقوفها الخشبية السامقة تتلألأ فى منتهى الصحن الذي تخيم عليه أشعة خافتة وضاءة تنعكس من الترخيمات الناعمة وفصوص العاج المصفرة فى تضاريس المنبر ولمعان الفسيفساء بحيث تنبثق عن هذه المجموعة المعمارية الخلابة عظمة تجمع بين الوداعة والنعومة ، فجامع قرطبة رغم سمعته لا يتسم بنفس الطابع من التجانس والتناسق فى حين أن جامع « الكتبية » يشكل متحفا حيا للاعمدة الموحدية التي ينيف عددها على الاربعمائة والتي ما زالت تحتفظ بأصالتها المتجلية فى عبقرية الفنان الاندلسي الموحدي ومهارة يده الصناع وقد اكتسى بناء رؤوس الاعمدة غلالة من الخصب الذي لا ينضب معينه ولم يسبق له نظير فى الغرب الاسلامي ، ولن يسمح الزمان بمثله .

أما منبر الكتبية فقد تحدث عنه ابن مرزوق فى مسنده فاشار الى ما أكده أهل الفن من جودة واتقان ترصيع منبري جامع قرطبة ومسجد الكتبية فى حين أن المشارقة لا علم لهم فى نظره بفن النقش على الخشب برقة وأناقة ، ويرجع تاريخ صنع هذا المنبر الى عبد المومن بن علي .

ويرى كل من طيراس وباسي أن هذا المنبر هو أجمل منبر فى الغرب الاسلامي بل أبهى وأروع منبر فى العالم الاسلامي اجمع ، وما زال قائم الذات الى عصرنا هذا فى الكتبية ، الا أن بعض أجزائه تميل الى التداعي ، وقد تعرض «ميلي» فى كتابه عن الموحدين (ص128) الى المنارات او الصوامع الثلاث فذكر ان قيمتها لا ترتكز على ضخامتها وتوازنها فحسب بل ايضا على فخامة هندامها ونسبها الوافية بمقتضيات الاناقة مع بساطة فى الزخرف والنقش وأصالة فى الذوق الذي يحدق بها ويحويها دون مساس

بوحدة هذه المجموعة التي تسري فى معالمها آثار السلطان المؤسس لها محيي الملة والدين وحامي التقاليد بل مدعم الاسلام فى ربوع المغرب .

وقد بنى أبو يعقوب الموحدي القناطر ومعابر المياه مبرهنا بذلك عن اهتمام نادر بالصالح العام ، وقد أسس ولده المنصور منارات وقناطر وحفر مطافىء واقام الملاجىء فى الفلوات من سوس الاقصى الى سويقة ابن مذكود فى حدود طرابلس .

ولم يعثر على أي أثر للمدارس أو المرستانات التي أشار اليها صاحبا « القرطاس » و « المعجب » ويظهر ان المستشفى الذي بناه يوسف بمراكش فى القسم المنبسط من المدينة كان يتسم بطابع عصري ، وقد وصف « ميلي » هذا المارستان ملاحظا انه « يخلف وراءه مصحات أوربا المسيحية وتخجل منه حتى اليوم (أي عام 1926) مستشفيات باريز » .

نعم عرف فن الزخرفة الاندلسي المغربي ـ نظرا لزهد وتقشف عبد المومن وخلفائه ـ نوعا من البساطة حدت فناني الاندلس الى الاجتهاد لضمان خطوط الزخارف وفحواها وبذلك قويت حاسة الاتقان وسما الكيف والقيمة لا سيما مع توفر الوسائل وكفالة الذرائع المادية التي لم يسبق للفن الاندلسي أن عرف نظيرا لها منذ ازدهار مملكة قرطبة ، فقامت المؤسسات الضخمة وعجلت المجموعات الفنية الموحدية بمراكش واشبيلية والرباط بانبثاق الاساليب الكلاسيكية للفن الاسباني المغربي ، وقد تبلورت فى هذا العصر فى مجموع انحاء المملكة حضارة يانعة مؤتلقة المعالم انعكست أشعتها الخلابة على الحياة المدنية وحتى فى بعض مظاهر حياة البادية ، فاجتمعت فى الهندسة المعمارية رغبة فى ضمان جودة الكيف مع حاسة العظمة واستعملت أساليب آلية مقتبسة من « علم الحيل » لانجاز التصميمات الهندسية ، وقد لاحظ الاستاذ « اندري جوليان » أن الحضارة الاندلسية اتسمت اذ ذاك بطابع رائع صادف ازدهار النظام الذي حققه الموحدون ، وبذلك أخذ كل واحد حظه من الاشعاع الحضاري وامتد ذلك طوال القرون التالية حيث تغلغلت مدنية حق كثمرة للمبادىء وثقافة فكرية أخاذة فى أعماق الجبال المغربية ، وقد أكد الاستاذ « روبير

مونطاني » هذه الانطباعة عندما وصف المعالم التي تشهد بمدى اسهـــام الانتصارات الموحدية فى نشر الحضارة بالنواحي الاطلسية التي لم يسبق للعناصر الاجنبية أن تسربت الى حواجزها المنيعة .

« فقصبة الاوداية » مثلا برباط الفتح محاطة بسور ســـواء على طول نهر أبي رقراق أم تجاه المحيط الاطلسي ونحو السهل البربري ، وينفـــذ الزائر اليها من ثلاثة أبواب نشير خاصة الى الباب الكبير الذي تحتـــوي طبقته الارضية على قاعات متداخلة تعلوها حنايا جانبية فى نفس الاحجام مقببة ومحلاة بمناجد Pendentifs شبيهة بالجواهر المنظومة .

ويلاحظ ان انعدام الملاط المقوى Béton قد يثيـــر الدهشـــة بالنسبة للعصر الموحدي الذي امتازت فيه الهندسة العسكرية بالاستعاضة عن الحجارة بهذا الملاط لا سيما وأن الابواب الاخرى لمدينـــة الربـــاط تغايرها تماما من حيث مادة البناء ، وقد اظهر النحاتون براعـــة فى نقش بابي القصبة وهو نحت ثري منوع فى صلب الحجر على مستويات عديـــدة تتخلله خطوط هندسية تحدد مختلف الاقسام وتحيط كتابـــات الخـــط الكوفـــي بالمشتبكـــات Entrelacs وبافاريـــز الزخـــرف السعفـــي Frise de palmette فتبرز فيها كل العناصر الفنية التقليدية من خطوط هندسية وحنايا متفتحة وأفاريز وأشرطة كتابية وأقواس مفصصة Arcs lobés (أي ذات قويسات طبقا للفن الاندلســـي المغربـــي) وأقواس حدوية Outrepassés (أي شبيهة بحدوة الفرس أو نعله) وتتجلى التخطيطات الكوفية فى أروع مظاهرها وهي أجمل انواع الخطوط وأوفقها للنقوش المعمارية ، ولذلك كانت تشكل أحد المجالـــي البارزة فى الفن الاندلسي ، أما الرسوم النورية أو الزهرية فانها تشغل أيضا فى هذه النقوش حيزا واسعا كما يوجد رسم فى شكل حية قائمة على ذنبها انطلاقا من الاقواس المفصصة فى الوجهين معا ، ويتوافر هذا النوع من الرسم فى الابواب الموحدية الكبرى كباب كناوة (مراكش) وباب الرواح (الرباط) والملاحظ أيضا أن الرسوم السعفية (أي التي تتخذ أشكال سعف النخيل) تعتبر من العناصر الكلاسيكية فى الترخيمات الموحدية ، وهي موجودة فى جميع الابواب المومنية الا أنها أبرز وأوسع فى باب القصبة خاصـــة فى الوجه الخارجي للباب وهي من المقتبسات الراجعة الى الفن القوطي .

وبالرغم عن ثراء النقوش من حيث الاشكال والتقاسيم فانها تظل واضحة المظهر خفيفة المس دون أي غلو ولا تشعيب بخلاف ما سيمتاز به الفن فى عهد بني مرين من تكثف ووفرة ، وهناك تناسب بين الترخيم فى مختلف أجزاء الهيكل العام يتسم بالقوة والرشاقة معا بحيث لم يتخلف الموحدون فى ذلك عن تقاليد الفن الاسلامي شرقا وغربا .

اما السور الموحدي الذي اسسه يعقوب المنصور بالرباط فما زال ـ رغم مرور نحو من ثمانية قرون على تأسيسه ـ قوي الدعائم عدا قمته التي تفتت عناصرها ، وهو مبني من الملاط المقوى Béton الذي يحتوى على الثلث من الكلس بينما لا تتعدى نسبة الجير عادة السدس او الثمن، ومعلوم أن الملاط الموحدي هو أقوى الملاطات اذ يشتمل فى بعض المواضع على آجر مدكوك فى شكل ((طابية)) وعلى حصيات صغيرة قد لف بعضها ببعض فاصبحت كالحجارة فى صلابتها لا ينال منها المعول الا قليلا ، وقد غالبت اسافل السور جوارف المطر ، أما عرض السور فيبلغ أحيانا مترين اثنين ونصف متر قد عبنت فوقها طريق مشرفة للحراسة يدعمها حاجز منيع يقل ارتفاعه عن المتر الواحد فى حين يصل علو السور الى ازيد من عشرة امتار ، ويمكن أن نلاحظ اليوم وجود أربعة وسبعين برجا سبعة منها تمتد من ((برج الصراط)) فى الطريق الغربي الى ((باب العلو)) وتسعة الى ((باب الاحد)) وخمسة وعشرون الى ((باب الرواح)) وسبعة على طول ((ثكنة الحرس الملكي)) وأربعة وعشرون الى الجهة المارة من ((باب زعير)) والمطلة على ابي رقراق قرب ما كان يسمى بالمنزه .

ومن هذا الوصف الموجز يتضح أن ابواب السور الموحدي بالرباط لها ميزات مشتركة تتجلى فى وجود منعرجات ونواتىء ضخمة وسلسلة من القاعات المتوازية احداها مكشوفة يحتوي داخل كل منها على غرف صغيرة لسكنى الحرس أو خزن الاسلحة وهي تشكل مع ذلك مراكز دفاعية هامة تعززها الانعراجات المختلفة غير الموجودة فى الحصون الاندلسية .

المرينيون والفن الاندلسي المغربي

وفى عام 610 هـ انبثقت من الصحراء قبيلة بني مرين التي قامت بحملة واسعة فى كثير من الاقاليم المغربية التي كانت تحت الحكم

الموحدي وكانت حدود المغرب قبيل ذلك بعقود من السنين تمتد من السوس الاقصى الى طرابلس ، الا أن الحفصيين (وهم من سلالة الشيخ عمر الهنتاتي صاحب ابن تومرت) الذين كانوا يحكمون افريقية باسم الموحدين ، اقتطعوا لانفسهم مملكة منفصلة عن المغرب ، وفى عام 625 هـ أسس محمد بن يوسف بن هود باسم العباسيين امارة بالاندلس ما لبث ان استولى عليها بعد أربع سنوات الامير محمد بن يوسف بن الاحمر الذي انصاع لامير تونس وبذلك توالت الضربات على المملكة الموحدية فآل امرها الى الانهيار على اثر احتلال المرينيين لمدينة فاس عام 645 هـ .

وقد ازدهرت مظاهر الحضارة والعمران فى عهد بني مرين الذين أصبحوا أقوى ملوك افريقيا الشمالية اذ بالرغم عن محتدهم الصحراوي فانهم استطاعوا ـ بفضل اتصالهم المزدوج ببني نصر ورثة الحضارة الاندلسية وبالموحدين ـ التكيف والانسياق فى مجرى الحضارة تبعا للمقتضيات المدنية مع استمداد من معطيات الفكر الاسلامي والمجالي الطريفة فى التجديد ، وقد تبلور اتجاههم فى اقامة المدارس المحصنة والمساجد وقباب الاضرحة والفنادق المزخرفة والمدارس الفخمة التي أضفت على المغرب المريني طابعا خاصا من الروعة والبهاء .

وقد اتسمت حركة المرينيين المعمارية بطابع ديني فى كثير من الاحايين حيث أقاموا مجموعة رائعة من المساجد والزوايا فى تازة ووجدة وتلمسان وفاس والمنصورة (قرب سبتة) وطنجة وسلا ومكناس ومراكش، كما أقيمت معابد حول أضرحة الملوك مثل مقابر المرينيين فى شالة ، وفى شالة ذاتها أسسوا الزاوية التي تعبد فيها الشاعر الوزير ابن الخطيب السلماني والتي اضافها أبو الحسن الى جناح الاضرحة بهذه المدينة الاثرية وهي بساحتها الداخلية وصهريجها وأروقتها وغرفها أشبه بمعهد تتجلى فيه نفس المعالم الزخرفية المدرسية كالترخيم والنقش والزليج والفسيفساء والتبليط المرمري .

وتعتبر المدارس المرينية مساكن للطلبة ومركزا لدراستهم التي كانت تتابع فى المساجد القريبة منها ، واحيانا كانت المدرسة نفسها تحتوي

على مسجد صغير بمحرابه ومنارته ، وقد رسم التصميم العـــام لهـــذه المدرسة المغربية منذ القرن الخامس فهناك صحن تقوم فى جوانبه الثلاثة سلسلة من البيوت ، وفى الجانب الرابع قاعة للعبادة ، وتقوم فى الطابق الاول فى بعض الاحايين مجموعات أربع من الغرف تشرف على الصحـــن الداخلـــي .

وقد أسست أول مدرسة مرينية عام 670 هـ بأمر من أبـــي يوسف وهي تحتوي على مسجد ومنارة وهي المؤسسة الوحيدة التي يرجع تاريخ تأسيسها الى هذا القرن .

وفى القرن التالي أقيمت مجموعة من المدارس منها مدرسة فاس الجديد عام 720 هـ ، ومدرسة ((السباعيين)) (الصغرى) ثم أخيـــرا المدرسة ((المصباحية)) . وقد بنيت هذه المدارس بأمر من أبى الحسن الذي زود بالمدارس كبريات مدن المغربين الاقصى والاوسط (تازة ومكناس وسلا وطنجة وسبتة وانفا وازمور وآسفـي وأغمـات ومراكش والقصـــر الكبير والعباد بتلمسان وعاصمة الجزائر) .

ومن المساجد التي ما زالت قائمة برباط الفتح ممثلة الفن المريني ((الجامع الكبير)) الواقع قرب شالة والذي جدد فى عهد مولاي الحسن الاول سنة 1299 هـ (1882 م) .

تلك بعض المظاهر الجوهرية التي يمكن أن تستخلص منها صورة عن الفن المريني الذي بدأت تتبلور فيـــه مجالـــي الازدواج بين الطابعيـــن الاندلسي والمغربي فى شكل جديد سمي بالفن الاسباني الموريسكـــي . Art hispano-mauresque وبالرغم عن التاثيرات الأندلسيـــة التـــي وسمت هذا الفن فانه اصطبغ بسمة خاصة اذ عوضا عمـــا كان يذكـــي المهندس الاندلسي من رغبة فى تحقيق التوازن بين القوى فى المعالـــم المعمارية هدف المهندس المغربي الى ضمان متانة الهيكل بالاضافة الى ما كان يشعر به من حاجة الى مزيد من الزخرفة والتنميق وهذا هو الطابع العام الذي يتسم به مجموع الفن الاسلامي من تسطيرات ناتئة ومقربصات وتلوينات علاوة على روعة الهندام ورغما عما يتسم به هذا الفن المعماري

الذي بلغ فى العصر المريني أوج عنفوانه من ايقال فى التوريق والتسطير والنقش مع قلة توازن بين الاجزاء وعدم جودة المواد ، فان المجموع ظل واضح المعالم متوازي النسب تتجانس نقوشه تجانسا رئعا ضمن الحيز الذي يملاه ، وهذا بالاضافة الى ما انطوت عليه الالوان من دقـــة وجناس كاملين ، وقد أشيع الفن المريني شرقا وغربا بثروته التـــي لا تضاهـــي وروعته الطريفة الاصيلة ، فكان فنا أندلسيا مغربيا تتناسق عناصره فى العدوتيـــن .

وهذا التناسق الفني يرجع الفضل فيه الى نشـــاط المهنـــدس الاندلسي الذي كان تأثيره ملحوظا فى مجموع المآثر المعماريـــة ، وكان للفنانين والمنتجين المغاربة صيت رائع وحظوة لا بأس بها حتى فى الشرق، غير أن درجة النضج التي بلغها هذا الفن كانت تنطوي على عناصر انهياره، فقد استنفد كثيرا من قواه منذ عهد أبي الحسن وحال قيام الفتـــن دون تحقيق أعمال عمرانية كبرى بعد ذلك .

وهكذا نرى أنه اذا كان الفن قد استطاع الصمود فى نهاية العهـــد المريني فما ذلك الا بفضل العناصر الاندلسية التي هاجرت الى المغرب بحيث أصبح المغاربة منذ عهد الوطاسيين عالة فى كثير من الفنون والحرف على الاندلس ، ومع ذلك فان الفن المغربي الذي نشطت مقوماته العمرانية ظل محتفظا بجودته رغما عن انعدام الفخامة فى مجاليه ، ذلـــك أن وفرة الزخرفة وثراءها وروعتها انتظمت فى اطار من الوضوح والدقة لا غبـــار عليـــه ، وكان المجهود الفني الذي بذله المرينيون قد تقلص ـ كمـــا يقـــول طيراس ـ فى الوقت الذي انبهرت قوتهم العسكرية .

كيف تبلور الفن فى العصور الاخيـــرة ؟

أ ـ السعـديـــــون :

اتخذ تدخل السعديين صورة ثورة ضد عجز الوطاسيين عن ايقاف حملات المسيحيين وهبوب الاسبان لغزو المغرب بعد سقوط المعاقـــل

العربية فى الاندلس ، وقد تم احتلال سبتة عام 818 هـ فثارت ثائرة الامة المغربية وطاف دعاة الجهاد فى القبائل يحدون الناس الى مقاومة المغير، وقد تركزت هذه الحركة التحريرية حول مراكز اقليمية للتجمع وهي الزوايا ، واستغل الشرفاء السعديون الموقف فتزعموا هذه الفورة الشعبية ونصبوا انفسهم قوادا للثورة التي لم تنتظم الا بعد أن تمكن البرتغاليون من غزو كبريات المدن الساحلية التي أحاطوها بأسوار عتيدة وجهزوها بحصون وأبراج وأقاموا فيها مستودعات للماء (مطافيء) .

وقد عرف السعديون كيف يوجهون هذا الحماس الشعبي الرائع الذي كان يعززه العلماء والصوفية فأخرجوا العدو من أكادير وآسفي وأزمور وأصيلا والقصر الصغير ، وكللت سلسلة الانتصارات هذه بهزيمة شنعاء مني بها البرتغاليون فى معركة ((وادي المخازن)) التي فقدت البرتغال بعدها استقلالها السياسي طوال اثنتين وستين سنة ، واندرج المغرب بفضل انتصاره الفذ فى صف الدول العظمى وأصبحت تخطب وده بلاطات أوربا وتسعى فى الحظوة بمعونته وتأييده ، وقد أثرت الدولة بما درره عليها ذهب السودان وافتكاك الاسرى البرتغاليين ، فاتجهت نحو بناء مؤسسات معمارية كقصر ((البديع)) الذي وصفه ((اليفرني)) ملاحظا ان السبب الذي حمل المنصور على انفاق جلائل الاموال ونفائس الذخائر لبناء البديع هو الحصول على مأثرة وشفوف على المرابطين والموحدين ومن بعدهم ، وقد استغرق العمل فيه المدة المتراوحة بين سنة 986 هـ و 1002 هـ ، وجلب الصناع الافرنج كما جلب له الرخام من ايطاليا فكان يشتريه منهم بالسكر وزنا بوزن وكان هذا القصر عبارة عن دار مربعة الشكل فى كل جهة منها قبة رائقة الهيئة تحف بها مصانع من قباب وقصور ودور ... وفيها الرخام المجزع والمرمر الابيض والاسود ما يحير الفكر ، وكل رخامة طلي رأسها بالذهب الذائب وموه بالنضار الصافي وفرشت ارضه بالرخام العجيب النحت الصافي البشرة وجعل فى أضعاف ذلك الزليج المتنوع التلوين وتجسم فى سقوفه الذهب وطليت الجدران به مع بديع النقش ورائق الرقم بخالص الجبس ، وكان به أشعار مرقومة فى الاستار وأبيات منقوشة فى الجهات على الخشب والزليج والجبس ،

وقد هدم هذا القصر عام 1119 هـ « ولم يبق بلد ـ كما يقول اليفرني ـ من بلاد المغرب الا دخله شيء من انقاض البديع »

ومن المؤسسات الدينية السعدية مسجد « باب دكالة » الذي بنته « مسعودة المزكيتية » والدة المنصور ويتناسق فى هذا المسجد الاسلوب المريني (الصحن المربع) مع بعض معالم الفن الموحدي مثل هندام القباب « وجامع المواسين » بمرافقه من الحمام والمدرسة والكتاب (أي المسيد) والساقية ومورد الماء المخصص للحيوانات وتنم هذه المظاهر الجزئية عن استمرار تقاليد العصور السالفة فى الحقل المعماري.

اما جامع القرويين بفاس فان السعديين بنوا قبتين فى الصحن تتوسط كلتيهما خصة مرمرية شبيهة بما يوجد فى ساحة الاسود بالاندلس.

كما أسهم السعديون فى بناء مدارس صغرى مضافة الى المساجد أو الزوايا حيث توجد مثلا فى مراكش عاصمة السعديين أعظم مدرسة بالمغرب يرجع فضل تجديد بنائها الى الامير مولاي عبد الله وهي مدرسة ابن يوسف التي تستمد اسمها من الجامع المجاور بها وقد بناها ابو الحسن المريني ، وكانت اهم ماوى لطلبة جامعة ابن يوسف حيث تحتوي على نحو المائة غرفة . وقد اقيمت قبور السعديين على غرار أضرحة المرينيين بساحة قرب مسجد القصبة بمراكش لدفن امراء الاسرة المالكة .

واما المؤسسات العسكرية فان الانقلاب الذي طرأ على الاساليب الحربية تحت تأثير حركة النهضة الاوربية وانبثاق عهد الآلة وغزو المسيحيين للتراب المغربي ، كل ذلك حدا الدولة المغربية الى تعديل مناهج وطرق التعمير ، فالاسوار المحيطة بالمدن الكبرى تعززت بابراج مجهزة بعتاد جديد لمقاومة المدفعية ، ومن جملة هذه المعاقل المجردة « باستيون » (أي حصن) تازة الذي بناه المنصور استجابة للحواجز العسكرية القاضية بتزويد ممر تازة الواصل بين الشرق والغرب بالاجهزة الدفاعية المناسبة ، وهذا الحصن عبارة عن مؤسسة ضخمة مربعة الشكل يبلغ طول أضلاعها ستة وعشرين مترا ، وتطل منها على المدينة ثلاث عشرة

غرفة للرماية ، كما تحتوي على مستودعات للعتاد ، وقد اقام المنصـــور كذلك بفاس برجين آخرين يشرفان على المدينة ، وما زال البرج الجنوبي على حالته بينما أدخلت تعديلات على البرج الشمالي خلال القرون الاخيرة، وتجدر الاشارة هنا الى ان السعديين اضافوا أجهزة قويـــة جديـــدة الى المعاقل والحصون البرتغالية فى المدن المحررة (آسفي وأزمور والجديدة) كما بنوا فى طول البلاد وعرضها قناطر ذات طابقين استراتيجي ونفعـــي ومعابر لنقل المياه وسقايات عمومية على غرار سلفهم .

ومهما يكن فان الفن المغربي الذي استنفد قواه أصبح يرزح تحـت عناصر قوية فى النقش والزخرفة والتنميق فقدت بساطتها من جهة ولكنها ازدادت فخفخة ورواء من من جهة أخرى .

ب ـ العلـــويـــــون :

وفى القرن الحادي عشر عندما استتب الامر للعلويين الامجـــاد فى عهد مولاي الرشيد بدأ هذا الامير يهتم بتجديد معالم الفـــن المرينـــي والسعدي بتعزيز الاجهزة العسكرية ومتابعة بناء المعاهـــد والمـــدارس والمساجد ، وقد استطاع اقامة بعض المؤسسات رغم قصر أمد امارته الملآى بالحروب من ذلك بناؤه عام 1075 هـ لقنطرة طولها مائة وخمسون مترا مرفوعة على أعمدة تتخللها ثمانية أقواس كما شرع عام 1081 فى بناء ((مدرسة الشراطين)) ، ولا تخلو هندسة ونقوش هذه المدرسة من جمال الا ان معالمها بعيدة عما كان يتسم به الفن المريني من صفاء .

وأقوى أمير واعظم بناء فى الاسرة العلوية الماجـــدة هو مـــولاي اسماعيل الذي اضطرته مقتضيات التهدئة الى الجولة خلال عقدين مـــن السنين فى اقصى الاقاليم التي جهزها بقلاع يبلغ عددها ستا وسبعين فى المغرب وشمال الاطلس .

ثم اختار مدينة مكناس عاصمة اقام بها قصور فخمة داخل القصبة نفسها ، منها ((مدينة الرياض)) التي لم يبق منها سوى باب الخميس ،

وقد وصف « الناصري » قصور مكناسة ومساجدها ومدارسها بانها فوق المعهود بحيث تعجز عنه الدول كما ذكر الزياني أنه ما شاهد فى آثار الدول اعظم من آثار هذا الامير ، ولا يخفى ما فى ذلك من ايغال بالرغم عما تنم عنه بعض الآثار الباقية من روعة الاصل .

وتشتمل جميع المساجد العلوية على صحون ـ قليلة العدد ـ تخترق المسجد على نسق ما عوهد فى فاس منذ أزيد من أحد عشر قرنا باستثناء الفترة المرينية .

أما فى الهندسة العسكرية فان العلويين ساروا على غرار سلفهم السعديين ، فالمولى اسماعيل أعظم من أقام القلاع والحصون .

ومن جملة القلاع المهمة التي ما زالت قائمة الى الآن قلعة اذخسان فى الشعاب الشمالية للاطلس وأكوراي التي تراقب الاطلس المتوسط وقلاع تادلا وحميدوش وبو الاعوان ومديونة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اما الدار المغربية فانها احتفظت بتصميمها وهندامها المعماري الذين أصبحا المظهر التقليدي منذ نهاية العهد المريني أي منذ نحو خمسة قرون، فالباحة الداخلية التي تتصل بالخارج عن طريق ممر منعرج ـ يتناسب مع لوازم الحجاب العرفية ـ محاطة بأروقة مسقفة مستطيلة تتفتح فيها غرف ذات أبواب ضخمة تعلوها شماسات مفرغة وتقوم على جانبها نافذتان متوازيتان وفى احدى جوانب « وسط الدار » يوجد بهو منمق الجدران كما فى أجزاء المنزل علاوة على سقاية تواجه البهو أحيانا أو فسقية فوارة

ويرى المؤرخ جورج مارسي ان الدور المغربية تنسم بمياسم ثلاثة او ترجع الى ثلاث مدارس :

1 ـ مدرسة الرباط وسلا ومدن الساحل

2 ـ مدرسة مكناس وفاس

3 ـ مدرسة مراكش ومدن أو قرى الجنوب

فالتصميمات واحدة فى هذه الدور وانما يختلف الهيكل العام ومعالم الزينة تبعا لهذه الاقاليم ، فالاسلوب الموحدي يغلب وجـــوده فى المدن ذات الطابع الاندلسي حيث تحيط مثلا الحنايا الحجرية بساحـــة الدار الوسطى ، وفى بعض المدن كفاس حيث تسيطر التقاليد المرينية ، تحتوي الدار على طبقتين أو طبقات تتوفر فيها مظاهر الزخرفة بينما يتبسط هذا الاسلوب فى مدن الشمال الاخرى كوزان وتازة (باستثناء تطوان الاندلسية الهنـــدام) .

وفى كل ذلك اتسم الفن العلوي الرائع بطابع ضم الى ضخامة الفن الموحدي روعة ودقة الفن المريني وخاصة منذ أن استعاد هذا الفن رواءه الاصيل بفضل الانبثاقة الفياضة التي أذكاها جلالة المرحوم محمد الخامس تبلورت فى تجديد جوامع ومساجد المغرب وخاصـــة ((جامع السنـــة)) بالرباط وقد ازداد هذا التراث الفني بهاء فى عهد جلالة الحسن الثانـــي حفظه الله من خلال ذلك التوليف الاخاذ الذي ركز فى ((ضريـــح محمد الخامس)) بحسان أبهى عناصر الفن الاندلسي المغربي مما عز نظيره الان فى العالم بحيث يعتبر هذا الضريح فى مظهره المعماري وحده تحفة فنية هي أبدع ما خطته يد الصناع فى المغرب الاقصى .

وقد عاش المغرب فى ابان الحماية عالة على روائع الماضي فكبريات المدن فقدت كثيرا من مظاهرها الفنية الكلاسيكية ، ومدينة فاس التـــي كانت تنافس حاضرة بغداد قد تهدم الكثير من آثارها ، وقـــد وصـــف ((كامبو)) هذه المعالم عام 1886 م أي بعد بدء تسرب الاستعمـــار الى المغرب العربي واتجاه ملوكنا الى الذب عن حياض المغرب فلاحـــظ فى نغمة المتشائم ان كل شيء بال عتيق منخور فى معظمه لانعدام أي اصلاح الا ان مصلحة الآثار تبذل جهودا لترميم المآثر التاريخية التي يهددهـــا الحدثان مع محاولة الاحتفاظ بالاساليب الكلاسيكية فى الفن المغربـــي بالاضافة الى حركة التجديد التي تساير التطور العالمي .

ومن هذه الفذلكة يتجلى أن الاختلاف الظاهر بين المدارس الفنية في مختلف العصور المغربية لا تسمح لنا بالحديث عن مدارس معمارية مختلفة فضلا عن وجود انفصام بين الاتجاهات الفنية التي ترجع في نظري الى عوامل اجتماعية تاريخية هي نفسها مستديمة التقلب ولعل هذا هو الذي يفسر لنا مظهر التجانس بين أجزاء الهيكل المعماري العام في حواضر المغرب فالدور الانيقة لا يختلف كثيرا بعضها عن بعض من حيث الشكل واسلوب الزخرفة ذلك أن وفرة الجزئيات والزخارف المرينية مثلا لم يعد لهما حيز اقليمي خاص لا سيما في العصور الاخيرة حيث تحقق بين الحواضر الكبرى (كفاس والرباط ومراكش) تداخل عميق أسفر عن وجهات متساوقة وحيوية فياضة هي سر هذا الطابع العام الموسوم بالوحدة، ولكن هذه البوتقة لا تلبث أن تصبح وعاء لانصهار العناصر المختلفة في فن جديد تتسق فيه معطيات العصور وتنبثق عن مزيج كلاسيكي .

فهل من مصلحة هذه المعالم ان تتحد ؟ أم أن سر جاذبيتها كامن في اختلاف معالمها ؟ أم ان استمرار اصالتها لا بد أن يرتكز على نوع من الامتزاج ؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الواقع أن الهندسة والاساليب المهنية العتيقة التي يظهر انها تحجرت في البادية والجبال يجب أن تنتعش بمعطيات الفن في الحواضر، ولكن دون مساس باصالتها ، ويجب أن ينبثق كل تجديد عن حاسة عريقة بالجمال وشعور تلقائي بدافع التكيف لا تذوب معه الخواص الجهوية التي هي أسس كل اصالة .

الرباط — عبد العزيز بنعبد الله